

جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

السلامة والمجتمع بالإنجاز

فيلد عصر المرابطين

479هـ - 539هـ / 1085م - 1144م

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط

إشراف الأستاذ:

د/ إبراهيم مجاز بكير

إعداد الطالب:

أحمد شارف

جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

السلامة والمجتمع بالإنجليزية

فيلع عصر المرابطين

479هـ - 539هـ / 1085م - 1144م

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط

اللجنة المشرفة على المناقشة:

1- الدكتور: محمد الأمين بلغيث رئيساً ومناقشاً

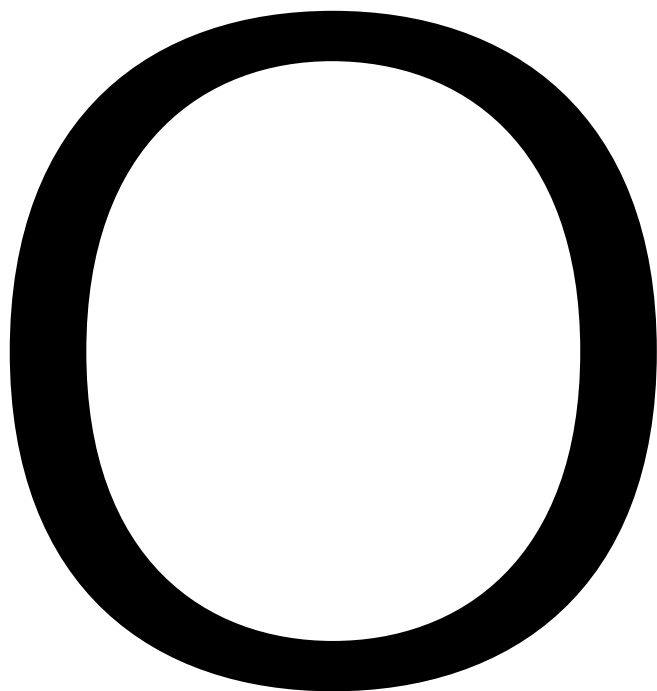
2- الدكتور: إبراهيم بكير بجاز مُشرفاً

3- الدكتورة: سامية بو عمران عضواً مناقشاً

إعداد الطالب:

أحمد شارف

الموسم الجامعي: 1428 - 1429 هـ / 2007 - 2008 م



الإهداء

إلى الوالدين الكريمين

إلى أم محمد والشيماء

إلى إخواني وزملائي في الدراسة والعمل

إلى أساتذتي ومعلمي وكل من علّمني حرفاً في هذه الحياة أقدم هذا

العمل

شكر و عرفان

بعد شكري لله تعالى على منه وفضله وكرمه أن وفقني في إعداد هذا البحث، أتقدم بالشكر لكل من ساهم وأعان ووجه في انجاز فصول هذا البحث وأخص بالذكر أستاذي الفاضل الدكتور إبراهيم بكير مجاز الذي لم يدخر جهداً في التوجيه والتصويب، وأشكر أساتذتي الذين أشرفوا على تكويننا في مرحلتي الليسانس والماجستير، وأخص بالذكر كل من الدكتور موسى لقبال والدكتور محمد الأمين بلغيث والدكتور عبد العزيز الأعرج والدكتورة سامية بوعمران وإلى جانب هذه النخبة من الأساتذة أتقدم بالشكر لإخواني وزملائي الطلبة وأذكر هنا رفيق الدراسة والعمل الأخ عبد الجليل ملاح، والأخت بلحاج على كل ما أسدوه لي، كما لا أنسى أن أشكر زملائي في العمل خاصة أساتذة اللغة والأدب العربي الذين ساهموا بملاحظاتهم ومنهم: بشير مولاي، حسن فنيط، بلقاسم غزيل.

إلى جانب هؤلاء أشكر القائمين على المكتبات الذين لم يخلوا علينا في تقديم ما استطاعوا من كتب وأذكر هنا عمال مكتبات الجزائر العاصمة، مكتبات المركز الثقافي والبلدية ونادي المعلمين بالجلفة ومكتبات دور الشباب بمثليي.

والقائمة تطول في ذكر كل من له أثر في هذا البحث، وعليه فإنني أعتذر لكل من لم أذكر اسمه، وأقول لهم جزاكم الله خيراً.

المقدمة

: m

إنّ الواقع الذي يعيشه عالمنا الإسلامي والعربي، اليوم في جميع المجالات، واقع لا نُحسد عليه نجد في يومياته أخبار الضعف والانقسام والتشتت، وفقدان الحرية والإرادة السياسية، وذلك أمام القوى الأخرى التي تعرف تقدماً مستمراً، ولعل هذه القوى كانت عاملاً خارجياً من عوامل الضعف ولكن إلقاء اللوم على الطرف الخارجي هو محاولة للتخلص والتهرب من الواقع، وهو ما يؤدي بنا إلى الزيغ عن معرفة الأسباب الحقيقية، والبقاء في الضعف.

وهذا الواقع ليس وليد اليوم، بل يعود إلى قرون من الزمن، تخللتها عدة نكبات، بدأت حلقاتها بسقوط بيت مقدس عمر بن الخطاب بيد الصليبيين (1099/هـ493م) وبغداد الرشيد وعاصمة الخلافة الإسلامية بيد هولاءكو (1258/هـ656م)، أمّا آخر هذه الحلقات التي نشاهدها اليوم فتتمثل في وقوع بغداد وفلسطين من جديد في يد الصليبيين، وهنا نطرح سؤالاً: هل يُعد هذا الواقع قدراً محتوماً فنُسَلِّمُ بأن واقعنا صنعه غيرنا؟

الحقيقة التي لا مراء فيها أنّ كل النكبات التي عاشها العالم الإسلامي قديماً وحديثاً، إنما ترجع إلى خلل داخلي، ولعل من أهم الأسباب الداخلية التي تطفو إلى السطح، تكمن في طبيعة العلاقة القائمة بين السلطة والمجتمع، وهو ما قد يمثل قوة للدولة أو ضعفاً فيها، ورأينا ذلك حين تباينت توجهات ومواقف المجتمعات العربية مع سلطاتها، عند احتلال بلاد الرافدين، أي أن العلاقة بين الراعي والرعية تفسر أحوال الدولة.

دوافع الدراسة:

انطلاقاً من ذلك جاءت دوافع دراسة هذه العلاقة من خلال الرجوع إلى مكتبة التاريخ الإسلامي، لأنني أرى ضرورة العودة للتاريخ السياسي لعلاج ما تعانيه الأمة، و لا يتأتى ذلك إلا بعد إعادة قراءة تاريخنا قراءة متأنية موضوعية ناقدة لأخذ العبر؛ وإذا كان هناك من يدعو إلى الدراسات المستقبلية والكف عن اجترار الماضي، فإنّ في ذلك إنكاراً وجحوداً لتجارب سلفنا، التي تعد أكثر لا يجب تضييعه فهذه التجارب هي بحاجة إلى نفث الغبار عنها بالنقد والتحليل، حتى لا ننطلق من أفكار مسبقة، ولا عاطفة تهوي بصاحبها، حتى يتم الاستفادة من تجارب سلفنا صوابها وخطئها بعد مزج السياسة بالاجتماع، إذ أنّه لا يمكننا أن نخطط لمستقبلنا إلا إذا استفدنا من تجارب ماضينا.

وفي خضم التجارب الكثيرة، لعلاقة السلطة بالمجتمع في التاريخ الإسلامي، اخترت ثنائية السلطة المرابطة والمجتمع الأندلسي نموذجاً للدراسة، وكان هذا الاختيار لما يتميز به هذان الطرفان من خصائص، فالمجال الجغرافي الأندلسي يمثل ثغراً من ثغور الإسلام، تضم أكبر حواضره التي كانت

مراكز إشعاع حضاري وعلى الرغم من ذلك، فقد ضاعت من أيدي المسلمين سلطة ومجتمعاً، بعد حكم إسلامي دام ثمانية قرون، ونفهم من ذلك أنه لا يمكن استبعاد مخطط استرداد النصارى لاسطنبول (القسطنطينية) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية والأرثوذكس قديماً، إذا وجدوا لذلك منفذاً. أما المجال الزمني فيشمل فترة حكم المرابطين، وهي فترة تُحدد زمنياً بحوالي ستين سنة ابتداءً من (1085/هـ479م) إلى (1144/هـ539م) واختيار السلطة المرابطية لكونها تمثل نموذجاً واضحاً لدراسة الدولة الإسلامية السنوية من خلال المراحل التي مرت بها، فقد مرت بمرحلة من القوة وتمكنت من تحقيق النصر في الزلاقة، بعد أن دبّ اليأس في الأندلسيين، كما عرفت مرحلة الضعف ما أدى إلى سقوط سلطتها في الأندلس، ثم في مراكش والمغرب الإسلامي عموماً.

أهمية الموضوع:

إنّ تجربة المرابطين جديرة بالدراسة، لكونها جاءت في زمن عصيب من الفتن، والاختلالات في الغرب الإسلامي، وهذا الموضوع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقعنا، يحاول البحث في العلاقة بين العناصر الأساسية المكونة للدولة، ويدور في فلك النظريات الخلدونية السياسية والاجتماعية كنظرية السلطة أو ما عبر عنها بمصطلح الملك وأسباب قوته وضعفه، وعلاقة ذلك بالمجتمع والاقتصاد والجيش والدين، ومن خلال ذلك يمكننا مطابقة ما نصل إليه من نتائج على واقعنا اليوم، وتفسير العلاقات القائمة بين هذه العناصر، ومنه محاولة المساهمة في علاج ما أمكن من أمراض تنخر جسد الدولة. ولقد تباينت الآراء حول السلطة المرابطية إذ إننا لا نكاد نجد مؤلفاً إلا وتطرف مدحاً أو قدحاً، فرأيت ضرورة الوقوف موقفاً وسطياً بين من مجد المرابطين إلى أن جعلهم لا يخطئون وبين من سال قلمه حقداً، فنعتهم بكل نقيصة، ولذلك رأيت ضرورة التخلص من الأفكار المسبقة، وعدم الميل إلى اتجاه إلا ما توافق مع العقل والنقل، بهدف تقصي الحقائق، معتمداً على ما جاء في المصادر وتقييم دور المرابطين وانجازاتهم وأخطائهم، إذ لا يمكننا أن نستفيد من التاريخ إذا كان يكتب حسب ما يوافق الأهواء والميول.

الإشكال المطروح:

والإشكال الذي أطرحه في هذا الموضوع، هو: كيف كانت علاقة السلطة المرابطية البربرية ذات المنشأ الصحراوي، بالمجتمع الأندلسي المدني متعدد الاثنيات والديانات؟ وتندرج ضمن هذه الإشكالية عدة أسئلة منها: كيف تأسست السلطة المرابطية؟ وما هي الأسس المعتمدة في التأسيس؟ وما هي الخصائص التي تميز المجتمع الأندلسي من خلال التركيب، والواقع الاجتماعي؟ وكيف كانت تطورات العلاقة بين المجتمع والسلطة، وما العوامل التي أدت إلى ذلك؟

خطة العمل:

للإجابة عن هذه الأسئلة اتبعت الخطة التالية: قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول مسبوقة بفصل تمهيدي، والمقدمة كانت للتعريف بالموضوع وأسباب اختياره وإشكاله، وخطة العمل ونقد أهم المصادر المستعملة، ويليهما الفصل التمهيدي وهو عبارة عن توطئة للموضوع إذ يشتمل على ذكر أوضاع المغرب والأندلس التي ظهرت فيها السلطة المرابطية، وذلك من أجل إدراك الواقع الذي ظهرت فيه السلطة، ومدى التغيير الذي ساهمت فيه، إذ لا يمكننا تقييم دورها إلا بعد مقارنة الأوضاع قبل السلطة وأثناء حكمها، وذلك يتعلق بالمغرب والأندلس على حد سواء.

أما الفصل الأول فيتطرق إلى الطرف الأول في العلاقة، وخصصت الحديث فيه بنشأة السلطة المرابطية وأهم أسسها، وذلك لإظهار المرتكزات التي انطلقت منها السلطة، وما مدى مساهمتها في مد نفوذها، وتغطية هذا الفصل شملت بلاد المغرب الأقصى والصحراء موطن المثلثين، فشمّل الإطار الجغرافي الذي ظهرت فيه السلطة، والإطار البشري المؤسس المتمثل في قبائل المثلثين، وإظهار دور العصبية في التأسيس، ثم التطرق إلى أثر الدعوة الدينية التي قادها القادة الأوائل، لجمع شمل هذه القبائل، إضافة إلى هذه الأسس الروحية، نذكر أساساً مادياً لا يقل أهمية وهو أثر سيطرة المثلثين على مسالك التجارة في تثبيت دعائم السلطة وتقويتها.

وفي الفصل الثاني، تم فيه الانتقال إلى الأندلس، لإعطاء نظرة سريعة حول المجتمع الأندلسي الذي يمثل الطرف الثاني في العلاقة وذلك من خلال تركيبة عناصره المتعددة، من عرب وبربر ونصارى ويهود وغيرهم، والنظر في أحوالهم وطبقاتهم وخصائصهم، ثم محاولة استنتاج الملامح العامة التي تميز المجتمع الأندلسي، ويساعدنا ذلك في معرفة وتفسير بعض الجوانب في العلاقة، لأن التأثير ليس بالضرورة أن يكون من السلطة، فأحياناً كثيرة يكون من المجتمع.

وخصصت الفصل الثالث بالحديث عن العلاقة القائمة بين الطرفين (السلطة والمجتمع) وأهم تطوراتها وهو بذلك أطول الفصول ومن خلاله يتم البحث في أهم نقاط الالتقاء بين الطرفين فاشتمل على ذكر السياسة المرابطية ومواقف المجتمع منها، وتبين أن هذه السياسة تباينت بين مرحلة حكم الجيل الأول التي ميزها الاهتمام بشؤون الرعية، والمرحلة الثانية التي عرفت بعض مظاهر الإهمال لها فبدأت العلاقة تتغير من التوافق إلى التنافر، وبدأت تتكون معارضة داخلية، تحالفت مع القوى الخارجية التي كانت تتربص وتترصد ساعة الانقراض، فكان الوضع الداخلي مطية للهجمات الخارجية.

وكما جرى العمل في كل الأعمال الأكاديمية أُنهيت بحثي بخاتمة لذكر أهم النتائج المتوصل إليها، وألحقت بعد ذلك المذكورة بمجموعة من الملاحق، رأيت أنّها تفيد دراسي، وختمت كل ذلك

منهجية البحث:

أمّا المنهجية التي تناولت بها الموضوع فقد تراوحت بين السرد التاريخي للأحداث ونقدها وتحليلها ومقارنتها، وكانت عملية السرد اعتماداً على المصادر، وهو منهج لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابة التاريخية خاصة حين تكلمت عن تكوين السلطة وتطورات العلاقة بين المجتمع والسلطة، وفي حالة وجود تباين في الروايات مثلاً كموقع رباط ابن ياسين أو سنة وفاته فإنني اعتمدت الروايات الأقرب للحدث زماناً ومكاناً والأكثر شهرة، والتي خضعت للمناقشة من قبل المحققين المعاصرين من أمثال حسن أحمد محمود- رحمه الله-

وتخللت عملية سرد الأحداث، منهج التحليل والنقد لهذه الأحداث لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفية، ومن خلال ذلك يمكن معرفة وتفسير الأسباب والعوامل الحقيقية المؤثرة في علاقة السلطة بالمجتمع.

كما لجأت إلى محاولة تأصيل بعض القضايا، وذلك لإعطاء أحكام حولها متجرداً من الأحكام المسبقة ومتفادياً الوقوع في الخطأ ما أمكن، كما استخدمت أسلوب المقارنة أحياناً لإظهار الفوارق، مثل الحديث عن واقع الأندلس في ظل حكم ملوك الطوائف، والتغيرات التي أحدثتها المرابطون، والمقارنة بين واقع أهل الذمة في ظل السلطة المرابطية، وواقع المسلمين في المدن التي خضعت للاسترداد المسيحي.

الدراسات السابقة:

إنّ موضوع السلطة والمجتمع يجمع بين السياسة والمجتمع، وعليه فالدراسات السابقة تخصصت في معالجة أحد الجوانب السياسية أو الاجتماعية، إلا أنه تخللتها بعض صور المزج في ذكر العلاقة بين المجتمع والسلطة، ويعد بحث حسن أحمد محمود حول "قيام الدولة المرابطية" عملاً رائداً إذ إن كل من جاء بعده كان يدين له في اعتماد معلوماته وتحقيقاته وتصويباته، وتبعه في ذلك باحثون أمثال: سعدون عباس نصر الله في كتابه "دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف

بن تاشفين" أما من الباحثين الغربيين فقد تخصص الباحث Vincent LAGARDERE

"في كتبه المتنوعة حول دولة المرابطين مثل كتاب Les Almoravides, Le Djihad Andalou وكتاب "Le vendredi de Zallâqa".

أما في الجانب الاجتماعي فنجد المدرسة المغربية قد اهتمت بهذا الجانب، وتعد الكتابات القيّمة للباحث إبراهيم القادري بوتشيش من جامعة مكناس الزيتون من أهم الكتابات التي تخصصت في دراسة المظاهر الاجتماعية، ومنها:

"مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس في عصر المرابطين" و "المغرب والأندلس في عصر المرابطين (الجمعة الذهنية. الأولياء)" و "تاريخ المغرب الإسلامي (قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة"، وأعمال الباحثة عصمت عبد اللطيف دندش التي تخصصت هي الأخرى في دراسة عصر المرابطين السياسي والحضاري مثل كتاب "الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين" بالإضافة إلى هذين الباحثين باحث غربي وهو "PIERRE GUICHARD" في كتابه : Structures sociales, &é « orientale » et « occidentales » dans : l'Espagne musulmane .

كانت هذه النماذج سنداً متيناً لتتبع مراحل تطور العلاقة بين السلطة والمجتمع واكتشاف المصادر المتخصصة، وحوض غمار البحث التي لم تخلُ من العقبات.

صعوبات البحث:

وأثناء عملية البحث كانت هناك بعض الصعوبات، فأمام وفرة المصادر المرابطية، لم تكن عملية استخلاص مظاهر المجتمع وسياسة السلطة سهلة، وهو ما تطلب وقتاً معتبراً من القراءة والجمع، ولذلك استعنت بالمراجع السابقة التي توجه وتساعد على قراءة المصادر، ولم أكن أعتمد على مرجع إلا بعد تتبع جميع الإحالات في مصادرها الأصلية للتحقق منها.

وعلى الرغم من تعدد العناوين، إلا أن عملية الحصول عليها لم تكن يسيرة، فهذه العناوين منها ما فُقد في المكتبات العمومية، أما المكتبات التجارية فلا تتوفر على كل الكتب خاصة التاريخية المتخصصة، فكثير من العناوين كانت غائبة، وعليه تم اقتناء ما أمكن من الكتب المتاحة في الأماكن سابقة الذكر، كما استعنت بأصحاب المكتبات الخاصة من أساتذة وزملاء.

إضافة إلى هذه الصعوبات فقد كانت هناك مشكلة الوقت، إذ أرى أن مدة سنة لا تسمح بالاطلاع على كل مصادر البحث ومراجعته، وتحليل الأفكار واستنتاج الخلاصات وهذا ما من شأنه أن يؤدي إلى التقصير في الانجاز.

أ - كتب التاريخ

1- **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية:** كتاب صغير الحجم، كثير الفوائد، صاحبه مجهول، عاش في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، يظهر من خلال محتواه أنه مغربي عاصر الدولة المرينية في المغرب الأقصى ودولة بني الأحمر في الأندلس، لأن هذه الدول هي آخر ما تكلم عنه، إلا أن الجزء الأهم من كتابه كان قد خصصه للمرابطين، وتكمن أهميته أنه اعتمد على مصادر مفقودة، مثل كتاب ابن الصيرفي " الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية " تميز بالاختصار في إيراد الأخبار خاصة بعد عهد يوسف بن تاشفين، أفادني الكتاب في إيراد لبعض المعلومات التي تخص السياسة المرابطية، خاصة في فترة حكم يوسف بن تاشفين، ومما أورده صاحب الحلل استخدام الأمير يوسف للعبيد السودان وللعلوج في الجيش المرابطي وذلك في عز قوة الدولة وبداية عهدها، وذلك عكس ما ذكره ابن خلدون بأن الدولة تستظهر بجند غير جندها في آخر عهدها، كما أورد صاحب الحلل الضريبة التي فرضها الأمير يوسف على اليهود، وفي ذلك دلالة على عدم استقرار في سياستها المالية ولجوتها إلى تحقيق ذلك بالاعتماد على الأثرياء.

2- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** للمراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي (ت647هـ/1250م) خدم الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور والي اشبيلية، خرج عبد الواحد المراكشي من الأندلس في ظروف لم يُبينها متجهاً نحو المشرق، واتصل بوزير الناصر العباسي ببغداد فكلفه بتأليف كتابه هذا، ومن خلال ذلك يتبين أن هذا المصدر هام في دراسة الحقبة المرابطية لقرب المؤلف لموقع الأحداث، كما أنه كتب كتابه بعيداً عن أي تأثيرات أو ضغوطات، إلا أننا نلمس فيه أحياناً كثيرة ميلاً للموحدين على حساب المرابطين، ومع هذا لا يمكن الاستغناء عنه لما فيه من معلومات، وقد تميز كتابه بالاختصار وغلب عليه الجانب الأدبي في التأريخ للأدباء والكتاب والشعراء، وركز في كتابه على تصوير انتقال المرابطين إلى الأندلس على أنه لم يكن إلا من أجل التوسع والنفوذ، كما أنه ركز على تحميل المرابطين مسؤولية ما آلت إليه الأندلس، فانفرد كتابه بالنقد لسياسة المرابطين، خاصة في عهد علي بن يوسف، وتركيزه على عهد علي بن يوسف يوحى بالتباين بين مرحلتين في سياسة الحكم المرابطي، وهو ما جعلني أعتمد عليه في الخطة التي اتبعتها في هيكلة هذا البحث.

3- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:** خصص ابن عذاري (ت706هـ/1306م) الجزء الرابع

من كتابه البيان المغرب، الذي حققه الدكتور إحسان عباس لدولة المرابطين، ويعد هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس، واعتمد ابن عذارى على عدة مصادر يشير إليها في متنه، ومن بينها كتاب ابن صاحب الصلاة المفقود " ثورة المريدین "، وقد أفادني هذا الكتاب في التعرف على ولاة السلطة المرابطية بالأندلس وترتيبهم، كما غطى جانباً من العلاقات بين هؤلاء الولاة والمجتمع، وهو ما يمكننا من استقراء واقع العلاقة بين الطرفين.

4- المقدمة: لعبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ/1406م) تعد المقدمة من الكتب التي لازمت البحث في كل فصوله، لاشتمالها على الإشكالات التي يطرحها الموضوع، والمتعلقة بسياسة الملك وعلاقته بالاجتماع، كما أن ابن خلدون كتب مقدمته اعتماداً على تجارب الدول عموماً ودول المغرب والأندلس منها خصوصاً، فكان هناك تطابق في تحليل أسباب قوة الدولة وضعفها، على ما لاحظته فيما يخص السلطة المرابطية، واستعنت في قراءة المقدمة ببعض الكتابات التي تطرقت لدراسة أفكار ابن خلدون مثل كتاب " الفكر الخلدوني " لمحمد فاروق النبهان، وكتاب " فكر ابن خلدون العصبية والدولة " لمحمد عابد الجابري، وكانت هذه الدراسات قد أفادتني في فهم ما تعلق بأسس قيام الدولة وأسباب سقوطها، متطرفة لذلك بالشرح والتحليل.

ب - كتب الفقه والنوازل

إلى جانب الكتابات التاريخية والفكرية هناك مصدر آخر لا يقل أهمية في رسم الصورة الدقيقة للمجتمع، وهي كتب النوازل والحسبة: يعتبر تصويرها لمظاهر الحياة العامة في المجتمع أكثر دقة ووضوحاً من غيرها من المصادر، لتمييز أصحابها بالعلم والنظرة الدقيقة، كما أن موقعهم القريب من المجتمع سهّل لهم تصوير يومياته، وأهم القضايا التي تعرض للاستفسار بالإضافة عرضهم لتراعاتهم على أهل الفتيا والحسبة، واستطاعت هذه المصادر الدفينة أن تصور مقاطع هامة من الحياة الاجتماعية في عصر المرابطين، كما أنها تبنت بعض المواقف السياسية للعلاقة التي ميّزت الفقهاء بالسلطة المتغلبة عموماً، والسلطة المرابطية خصوصاً ومن بين الأسماء التي أوردتها في هذا التخصص:

5- فتاوى ابن رشد للإمام الفقيه، محمد بن أحمد بن محمد، أبو الوليد بن رشد المعروف بابن رشد الجد (ت520هـ/1126م) ويرجع الفضل في جمع مخطوطاتها لمختار الطاهر التليلي تحت اسم " فتاوى ابن رشد " لقد صور لنا ابن رشد جانباً من الحياة الاجتماعية، كما تطرق من حين لآخر إلى قضايا أهل الذمة فبين لنا موقف السلطة من أصحاب المذاهب غير المالكية الفقهية

والعقدية، كالمذهب الظاهري والمعتزلة والأشعرية، كما أثبتت هذه الفتاوى تسامح السلطة مع أهل الذمة، حين أدرجت نوازل تثبت التجاور والتعايش بين المسلمين وغيرهم من عناصر المجتمع من نصارى ويهود، وتسامح السلطة معهم، وحماية حقوقهم، ويتجلى ذلك في تراجع الإمام ابن رشد في حكم لصالح نصراني بعد أن ثبت أن الحق لصالحه، كما لا أنسى الأثر السياسي للفقهاء عموماً، ولا ابن رشد خصوصاً ويظهر ذلك من مواقفه التي كثيراً ما كانت وبالاً عليه، وعلى غيره من الفقهاء؛ ومن أهم القضايا تلك التي تمس ملكية العقار، وهذه الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر.

6- "المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب": للونشريسي أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد (ت 914 هـ/1514م) قام الونشريسي في المعيار بجمع الفتاوى التي عرفتها بلاد الأندلس والمغرب وافريقية، فكان جهده في الجمع قد أخذ منه شباب عمره ليجمع لنا حصيلة سبعة قرون من الفتاوى والقضايا المطروحة، فكانت موسوعة فقهية للنوازل وأحكام الفقهاء في شؤون الدين والدنيا، وأخذ علماء عصر المرابطين نصيباً وافراً من المعيار، إذ أورد النوازل التي أفتى فيها الفقيه ابن الحاج محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج الشهيد (ت 529 هـ/1134م) و نوازل ابن سهل (ت 486 هـ/1093م) من علماء وقضاة المرابطين، والإمام الفقيه القاضي أبو الوليد ابن رشد الجد، أما فيما يخص ما أفادني به هذه الموسوعة، فأذكر أولاً أنها سهلت لي الوصول إلى النوازل المعروضة على الفقهاء الذين سبق ذكرهم، والتي تمس ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس، وخاصة العلاقات بين المسلمين مجتمعاً وسلطة وأهل الذمة، وبيان أحكام الدين فيها، وذلك بعد تأصيل القضايا من الكتاب والسنة، ومما أذكره على سبيل المثال قضية أهل الذمة والتعامل معهم، وما لهم وما عليهم من الالتزامات والحريات والممنوعات، وذلك بعد التفريق بين ما فُتح عنوة وما فُتح صلحاً، وبينت مادته أوضاع أهل الذمة في الغرب الإسلامي، فكان معيار الونشريسي مصدراً أساسياً انطلق من خلاله كثير من دارسي المجتمع والتاريخ في الغرب الإسلامي.

ج - كتب الجغرافيا

إلى جانب ما سبق من تخصصات ساهمت في كشف تاريخ الغرب الإسلامي، فإنّ كلّ ذلك يُعدّ مبتوراً إذا لم يقترن بمعرفة وافية للأقطار والمدن التي كانت مسرحاً للأحداث فاستعنت بكتابات أهم الجغرافيين الذين كانوا قريين زماناً ومكاناً لدولة المرابطين، وقمت بإعطاء لمحة جغرافية عن جل المدن والمناطق التي ذكرتها، ومن الكتب التي استخدمتها أذكر:

7- المسالك والممالك، للبكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت487هـ/

1094م) والكتاب من تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، وهو كتاب في جزأين، اشتمل على ذكر بلاد المغرب، وتكمن أهمية الكتاب في كون مؤلفه كان قريباً من المرابطين، خاصة في مرحلة التأسيس، فكان إلى جانب ذكره لأوصاف البلاد، فإنه كان يسرد الأحداث التاريخية، وانفرد في نقد مؤسس الدولة المرابطية "عبد الله بن ياسين"، ومنهجه في التأسيس ومما انتقده فيه: أخذه لثالث الأموال المختلطة من أصحاب الأراضي التي فتحوها، والقيام بتأديب كل من يدخل في دعوته على أساس تطهيره من الذنوب، وذلك بضربه بالسوط وضرب كل من يتخلف عن صلاة الجماعة، وكل ذلك لم يكن له أساس في الدين، فلم يمر البكري مرور الكرام مثل غيره على هذه الأعمال، بل لاحظ هذه المخالفات وانتقدها، ولم يقف عند هذا الحد بل وصف ابن ياسين بالجهل لقيامه بأعمال تنافي ما جاء في الدين، ويدل ذلك على روح النقد من جهة، كما يدل على أنه كان يكتب وهو بعيد عن السلطة المرابطية.

8- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق

للإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي (ت564هـ/1169م) تقديم إسماعيل العربي واقتبس جل ما له علاقة ببلاد المغرب والأندلس، أفادني هذا الكتاب في إعطاء صورة واضحة عن الأندلس في عصر الملتمين، بوصفه لمدتها ونشاطات سكانها، وارجع الإدريسي النشاط الذي عرفته المدن الأندلسية، إلى سياسة إبطال المكوس، ولعل ابن أبي زرع في كتابه " الأنيس المطرب" اعتمد عليه في ذلك، واستطاع الإدريسي أن يكمل ما كان ناقصاً بالنسبة لكتاب البكري " المسالك والممالك" فيما يخص المادة المتعلقة بجغرافية الأندلس.

د - الدراسات والأعمال الجامعية

لقي تاريخ المرابطين اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين والدارسين، و لعل من أهم المراجع التي تتصل اتصالاً مباشراً بالموضوع هي المراجع التالية وأهم خصائصها:

1. كتاب "قيام دولة المرابطين" لحسن أحمد محمود -الذي سبق ذكره- ويعد من السابقين الأوائل في حوض غمار البحث فيما يتعلق بالمرابطين، وهذا الكتاب يمثل قاعدة الانطلاق في البحث للتعرف على أطوار تأسيس الدولة المرابطية، كما كان مصدر انطلاق لكل من تكلم عن تاريخ المرابطين، أفادني في التأريخ السياسي لمراحل نشأة الدولة وتطورها، وله الفضل والسبق في قراءة المصادر المرابطية، ونقدها ومقارنتها، فكان قد عبّد الطريق في دراسة المرابطين لكل من أراد أن يسلكها.

2. عمل الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث بعنوان "الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين": وهي تثبت أن عصر المرابطين بقدر ما كان عصر السيف كان عصر القلم، وفي ذلك رد على كل من اتهم المرابطين ببعدهم عن العلم والعلماء، فكانت الرسالة تركز في دعم أرائها بما أوردته المخطوطات والمطبوعات التي خلفها عصر المرابطين فكانت خير شاهد، قام أستاذنا بعملية مسح لكل ما يتصل بالحياة الفكرية في عصر المرابطين في شتى العلوم والتخصصات، فكانت بمثابة الموسوعة الفكرية لعصر المرابطين، أفادني الرسالة في تأصيل للقضايا المطروحة، والإحالات للكم الهائل من المصادر والمراجع فكنت أعتمد على الرسالة في إيراد ما لم أصل إليه من هذه المؤلفات، كما أفادني في القضايا الجدلية المتعلقة بقضايا الجدل الديني، بالنسبة للمسلمين وغيرهم، كما وقف أستاذنا على بعض المنتجات الفكرية التي لقيت معارضة من قبل فقهاء المرابطين، ككتاب إحياء علوم الدين، فرأيت أن مثل هذه السياسات قد كانت وبالاً على الدولة، إذ استغلته الأطراف المعادية لها، ولا يمكننا أن نقول إنها قد صدرت بمعزل عن السلطة، وذلك لأنني أرى أن الأمراء قد منحوا الفقهاء تفويضاً شبه مطلق في إدارة شؤون الدولة.

3. أعمال الباحث الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش القيمة حول الحياة الاجتماعية في عصر المرابطين، لقد استطاع الباحث أن يسد فراغاً في الجانب الاجتماعي الذي كان ينقص الدراسات السابقة، تميزت أعماله بالرجوع إلى مصادر دفيئة ومخطوطات ثرية بدقائق المجتمع فدرس التركيب السكاني، والعلاقات والذهنيات والعادات المنتشرة، وبما أن هذه الأعمال تطرقت لمجتمع المغرب الأقصى والأندلس عموماً، فقد أخذت منها ما يخدم الموضوع بالنسبة للشق الأندلسي، أفادني أعمال الباحث في رسم خطة العمل لدراسة الفصل الثاني الخاص بالمجتمع وعناصره، كما انه قد ضمن بحثه صوراً لعلاقة السلطة بالمجتمع خاصة عند حديثه عن أهل الذمة، وكان في ذلك كثيراً ما يعطي مبررات لكل ما قامت به السلطة، وانتقد سياستها

المالية التي توصل إلى أنها تقوم على اقتصاد المغازي الذي لا يعرف ثباتاً، ويخلص إلى أنه أحد أهم أسباب الضعف في آخر الدولة.

4. أعمال الأستاذة عصمت عبداللطيف دندش ومنها "الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني" رسالة دكتوراة، تناولت الباحثة النصف الأخير من عصر المرابطين، وتعرضت إلى جوانب سياسية وحضارية واجتماعية بالدراسة، كما استفدت من رسالتها للماجستير " دور المرابطين في نشر الإسلام في إفريقيا" وركزت في عملها هذا على فترة التأسيس للسلطة، وتوجه اهتمامها نحو الجنوب لنشر الإسلام، أضيف إلى ذلك كتاب "أضواء على المرابطين" وهو عبارة عن قراءة تحليلية لبعض القضايا المطروحة في عصر المرابطي.

وفي الأخير أود أن أقول إن هذه مجرد محاولة لا تخلو من تقصير، لإعادة دراسة وتقييم دور السلطة المرابطية وعلاقتها بالمجتمع هذا الدور الذي تباينت الروايات حوله بين قادح ومادح، فأردت من خلال البحث أن أتجرد من كل أفكار مسبقة وأن أحلل جُلّ ما أوردته المصادر ليتجلى ما للسلطة المرابطية وما عليها ولعله هنا تكمن أهمية الدراسات التاريخية التي لا تتنكر للجهود البشرية وراثهم، كما أنها لا تعيد رسم الماضي على أنه صفحة بيضاء، وكل ذلك من أجل أخذ العبر.

وبالله التوفيق

الفصل التمهيدى

أوضاع المغرب الأقصى والأندلس عشيّة ظهور المرابطين ق (5 هـ / 11م)

المبحث الأول: أوضاع المغرب الأقصى عشيّة ظهور المرابطين

- 1- المغرب الأقصى جغرافيا وبشرياً
- 2- الواقع السياسي
- 3- الواقع الديني
- 4- الواقع الاقتصادي والاجتماعي

المبحث الثاني: أوضاع الأندلس عشيّة ظهور المرابطين

- 1- سقوط الخلافة الأمويّة
- 2- الواقع السياسي في ظل ملوك الطوائف
- 3- الواقع الاقتصادي و الاجتماعي

المبحث الأول: أوضاع المغرب الأقصى عشية ظهور المرابطين

إن دراسة موضوع ما دون وضعه في إطاره العام، من بيئة جغرافية وبشرية واجتماعية بالإضافة إلى ماضيه، تجعل الموضوع منفصلاً عن جذوره، ومسبباته ومنه لا يمكننا تحليله تحليلاً صحيحاً ودقيقاً، كما لا يمكننا تقييم نتائجه، وهو عين ما عبر عنه ابن خلدون في قوله: «لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب فيها بالشاهد والحاضر بالذاهب فرما لم يؤمن فيها من العثور ومن زلة القدم، والحيد عن جادة الصدق»⁽¹⁾؛ لذلك رأيت ضرورة الوقوف على الأوضاع التي قامت عليها السلطة المرابطية، حتى يتسنى لنا فهم أسسها وسياستها، وتقييم نتائجها والتحويلات التي أدت إليها .

ونشأة هذه السلطة كانت في الصحراء الواقعة جنوب المغرب الأقصى، وكان امتدادها إلى الشمال أكثر منه إلى الشرق⁽²⁾، إذ وصل ذلك الامتداد شمالاً إلى بلاد الأندلس، ولذلك استهل هذا الموضوع بإعطاء صورة عامة ومختصرة عن أوضاع المغرب الأقصى والأندلس قبل ظهور السلطة المرابطية، حتى تتمكن من فهم العلاقة بين الأوضاع السائدة وقيام السلطة المرابطية وتفسير سياسة هذه السلطة، وعلاقتها بالمجتمع الأندلسي .

1/ المغرب الأقصى جغرافيا وبشريا :

(1) عبد الرحمان بن خلدون(ت808هـ/1406م)، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (1426هـ-1427م / 2006 م)، ص23.

(2) توقف الزحف المرابطي نحو المغرب الأوسط في تلمسان، وكانت لهم مناوشات مع الدولة الحمادية في بعض مناطق المغرب الأوسط، أنظر: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1968م، 6 / 360، 381. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين دار الفكر العربي- دون تاريخ الطبع ومكانه-ص 228. محمد الأمين بلغيث، النظرية السياسية عند المرادي المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص50.

تعددت آراء وأوصاف الجغرافيين لحدود بلاد المغرب من الجهة الشرقية، فهل تشمل مصر إلى جانب شمال أفريقيا، أم تشمل فقط إقليم برقة شرقاً، يحدده ابن خلدون - بعد أن يذكر عدة آراء للجغرافيين قدامى قائلاً: « وأما العرف الجاري لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة إنما يختص بطرابلس و ما وراءها إلى جهة المغرب » (1).

وبما أن مصر تُعدُّ من أقاليم المشرق أثناء عملية الفتح، فإن بلاد المغرب تشمل المنطقة الواقعة غرب مصر من طرابلس شرقاً إلى البحر المحيط (المحيط الأطلسي) غرباً، ومن البحر الرومي (البحر المتوسط) شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوباً (2).

وأطلق الأوروبيون مصطلح الغرب الإسلامي "l'occident musulmans" (3) وهو مصطلح يطلق على بلاد المغرب والأندلس معاً.

وببلاد المغرب تقسم إلى ثلاث مناطق: المغرب الأدنى "إفريقية"، والمغرب الأوسط "الجزائر" والمغرب الأقصى موطن نشأة دولة المرابطين، ومركز سلطتها "مراكش" (4).

يصف ابن خلدون المغرب الأقصى بأنه كالجزيرة لموقعه بين البحار والجبال، حيث يقع بين البحر المتوسط شمالاً والمحيط غرباً (5)، يمتد من وادي ملوية (6) وجبال تازة (7) من جهة الشرق، إلى أسفي (8) حاضرة المحيط وجبال درن (9) من جهة الغرب، بالإضافة إلى وادي ملوية الذي ينبع من

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 201 .

(2) ابن خلدون، نفس المصدر، ص 194 وما يليها.

(3) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ط 1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، (1412هـ/1992)، مج 1، 17 / 1

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، 6 / 196، 197.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 196.

(6) نهر ملوية ينحدر بين الأطلسين الكبير والمتوسط ويصب في البحر الرومي، سكنت على ضفافه مكناسة ثم زناتة، وهو يقع آخر المغرب الأقصى، أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، 6 / 202. الصديق بن العربي، كتاب المغرب، دار الغرب الإسلامي، دار الثقافة، ط 3 (1404 هـ / 1984 م)، ص 186 .

(7) تقع تازة ببلاد المغرب تفصل جبالها بين المغربين الأوسط والأقصى، بنيت عليها مدينة الرباط سكنتها قبيلة مكناسة، أنظر : محمد بن عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975 : 128. أنظر: الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص ص 94، 95.

(8) أسفي مدينة ذات مرسى تقع على الشاطئ الأطلسي للمغرب الأقصى. أنظر: الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تقدم إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 م، 123. الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص ص 60، 61.

(9) درن جبل مشهور بالمغرب، يعرف بسقنفور وهو جبل عظيم في الصحراء مبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس، ويمر باتجاه المشرق مستقيماً حتى يصل إلى جبال أوراس وجبال نفوسة، يفصل بين الصحراء والساحل منه نهر نفيس و -

جبال تازة ويصب في البحر المتوسط، يمر فيه النهر المعروف بوادي أم الربيع⁽¹⁾ منبعه من جبال درن ومصبه في المحيط من جهة الغرب كانت عليه ديار مكناسة وتسكنها قبيلة زناتة⁽²⁾.

لعب هذا المجال الجغرافي دوراً في رسم مسار تاريخ شعوب بلاد المغرب الأقصى، لخصائص موقعه ومميزات جغرافيته التي فسرت كثيراً من الأحداث، فهي تقع بين ثلاث بيئات تفاعلت معها هي إفريقية والمغرب الأوسط شرقاً، واتصلت ببلاد الأندلس عبر المضيق شمالاً، أما جنوباً فهي تجاور السودان الغربي، فكان لها بذلك تأثير بالغ الأهمية، يتضح في تطورات أحداثها السياسية والاقتصادية .

عند قيام المسلمين بفتح بلاد المغرب، كان المغرب الأقصى يمثل قاعدة مقاومة الفتح، فلم يخضع للمسلمين بقوة السيف بل كان خضوعه بعد أن عرف أهله الإسلام واقتنعوا به فدخلوه طواعية⁽³⁾، ثم شاركوا مشاركة فعالة في مواصلة عملية الفتح نحو بلاد الأندلس، وإنقاذها من تحرشات النصارى حيث تم الاستنجاد بالمرابطين.

وفي مقابل ذلك فقد كان المغرب الأقصى أبعد المناطق عن التأثيرات الخارجية، فنجده في القرن الخامس لم يتأثر بمجيء أعراب بني هلال، ولم يتعرض إلى ما تعرضت له إفريقية من دمار، باستثناء ما سُجل من جراء قربها للأندلس، إذ انعكست عليه بعض المؤثرات الأندلسية خاصة في العهد الأموي.

وكان لتطرف المغرب الأقصى في الموقع دوراً في احتواء وقيام بعض الحركات السياسية والدينية معارضة كانت أو مؤيدة للخلافة، كدولة الأدارسة المؤسسة لفاس في الشمال، ودولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة، ودولة المرابطين التي ظهرت بوادها في الصحراء ودولة الموحدون التي ظهرت في جبال درن . وتشمل بلاد المغرب الأقصى **ثلاثة أقاليم** هي: إقليم التل الخصب المثمر كثير المياه في الشمال ولذلك كان محط أنظار مختلف القبائل، أما الإقليم الثاني فهو إقليم الجبال والهضاب، تسكنه قبائل متنقلة رعوية، أما الإقليم الثالث فهو الإقليم الصحراوي قليل المياه شديد الحر، وهذه الاختلافات الطبيعية أثرت في طبائع وخصائص ساكنيه البربر .

أغمات، أبو عبيد الله البكري، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، الدار العربية للكتاب قرطاج

1992م، 228/1. أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص ص 234، 235 .

(1) أم الربيع نهر ينحدر من الأطلس المتوسط، يسقي سهول تادلا و دكالة والشاوية، أهم روافده وادي العبيد، أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ص202، الإدريسي، المصدر السابق، ص140 . الصديق بن العربي، المرجع السابق، ص56.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق ، ص 201.

(3) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص18.